ثباتُ الأخلاق وحتى لا تعلوَ الحياةُ ولا تنزلَ إلا بمثل ما ترى من كفَّتيْ ميزان شدَّتا في علاقة تجمعهما وتحرّكهما معًا؛ وتَشِيل بالعالي لتبين عنه؛ فهي مُصرّفة لها قاضيةٌ عليها، وفي هذه الأسرارِ تجد تاريخَ الإنسانية كلَّه سابحًا في الدَّم. وتشْتَبِه العاليةُ والسافلةُ، وتُطَّرحُ المبالاةُ بالضمير الاجتماعي، ويقع ذلك منهم بموقع القانون، فأينما وقع من أعمال الناس جاء مكسورًا أو مثلومًا، وكأنه منتقلٌ من عالم إلى عالم ثانٍ بغير نواميس الأول. وأفرادٌ من الحكماء، الأخلاقُ في رأيي هي الطريقةُ لتنظيم الشخصية الفردةِ على مقتضى الواجبات العامة، فباطنُه هو الدينُ الذي يحكم الفرد، فهي في ظاهر الشعب دون باطنه، والفرد فاسدٌ بها في ذاتِ نفسه إذا هو تحلَّل من الدين، ولكنَّه مع ذلك يبدو صالحًا منتظمًا في ظاهره الاجتماعي بالقوانين وبالآداب العامة التي تفرضها القوانين، لأنها غير ثابتة فيه، وليكن السبب ما هو كائن. فتحولوا ذلك التحول الذي أومأنا إليه، وانتهت الحربُ بين أمم وأمم، فأثبتوا في كلِّ أرضٍ هديَ دينهم، فتحمله على الطيش. تحوطها وتُمسكها أعمال الإيمان التي أحكمها الإسلامُ أشدَّ إحكام بفرضها على النفوس منوَّعةً مكرَّرة: كالصلاة والصوم والزكاة؛ ويجعلَها كالحارسة للإرادة ما تزال تمر بها، وتوجيهها على مقتضى الحكمة، وإدخاله في ناموسٍ طبيعي بإجرائه في الأنفس مجرى العادة، وتكون أوامرَ وهي حقائق. ومن ذلك أُرانا- نحن الشرقيين- نمتاز على الأوربيين بأننا أقربُ منهم إلى قوانين الكون، وكنَّا الطبقةَ المصفَّاة التي ينشُدُونها في إنسانيتهم الراهنة ولا يجدونها، ويسمُّون ذلك تجديدًا، أن يترجموه إلى شعبٍ آخر. إنَّ أوربا ومدنيتها لا تساوي عندنا شيئًا إلا بمقدار ما تُحقِّق فينا من اتساع الذاتية بعلومها وفنونها؛ ولا أن نتسامحَ في دقةِ المحاسبةِ عليه. ثم إدخالُ الواجبات الاجتماعية الحديثة في هذه الضوابط لربطها بالعصر وحضارته، وتمازُجها؛

lakhasly.com © تم تلخيص النص بواسطة موقع لخصلي